الفصل العشرون

فجر أمة

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

إن من فضل الله تبارك وتعالى علينا أن جعل دعاء المؤمن مستجاباً. فما أحوج أن يتوجه كل منا إلى الله عز وجل بالدعاء في ظل هذا القدر الكبير من الهموم والمشاكل التي تثقل كاهل الفرد والأمة. ولذا، وجب علينا الحرص على دوام علاقتنا ببارئنا واللجوء إليه في كل وقت ومكان. ولن يجد الإنسان ما يطمئن قلبه ويغشيه بالسكينة والرحمة أفضل من التضرع إلى الله العلي القدير القائل في محكم آياته:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

جزاء المعصية

إذا كان هذا الفصل مخصصا للحديث على ختام سيرة صلاح الدين الأيوبي، فهي بلا شك مرتبطة ببدايتها. والأهم من ذلك أن خواتيم أعمال الإنسان تشير إلى مدى علاقته بالله سبحانه وتعالى.

لقد عانى صلاح الدين كثيرا طيلة العامين اللذين فرض فيهما الحصار على عكا. وطال الحصار وبدا سقوط عكا على وشك الحدوث رغم أن صلاح الدين فعل كل ما بإمكانه حتى لا تقع عكا تحت أيدي الصليبيين، وحتى يشهد الله له

بوقفته هذه يوم القيامة. وكان القاضي الفاضل قد بعث إلى صلاح الدين برسالة يشرح له فيها أسباب طول الحصار المفروض على عكا، إذ يقول:

"إن سبب هذا التطويل في الحصار هو كثرة الذنوب وارتكاب المعاصي بين الناس، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمره. وكيف لا يطول الحصار والمعاصي في كل مكان فاشية؟ وقد صعد إلى الله منها ما يتوقع بعده الاستعاذة منها".

وكما جاء بالرسالة فإن الأمر المفروغ منه هو أن أحوال الفرد والأمة من سعادة أو شقاء مرتبطة ارتباطا وثيقا بتحري تقوى الله سبحانه وتعالى أو البعد عنه والعياذ بالله. وإذا كثرت المعاصي حل غضب الله كما حدث أيام حصار الصليبيين لعكا لمدة سنتين. وقد كتب القاضي الفاضل في مذكراته الجمل التالية:

"إنما أوتينا من قبل أنفسنا. ولو صدقنا الله لعجّل الله عواقب صدقنا. ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا . ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به. فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرجو إلا ربه".

وفى الواقع، فإن تلك الكلمات توضح جليا أنه لا صلاح للأمة إلا بصلاح أنفسنا.

من كان همه الإسلام

ورغم ما قام به صلاح الدين من جهد، سقطت عكا في أيدي الصليبيين. ويروى القاضي الفاضل أن حزن صلاح الدين لسقوط ذلك الميناء أدى به إلى الامتناع عن الطعام لعدة أيام، مما اضطر القاضي الفاضل إلى مخاطبته قائلا:

"ألا ترى أيها الأمير أن الله تبارك وتعالى قد اختارك من دون عباده المتقدمين والمتأخرين؟! اختارك من بين أفراد قريبين من سلالة رسول الله ﷺ، اختارك ولم

تكن من سلالة ملك من الملوك، ولقد خصك الله تعالى بالانتصار العظيم يوم جطين، وفتح بيت المقدس وإعادة الصلاة إلى المسجد الأقصى". وأعقب كلامه السابق ببيت شعر قال فيه:

لست بملك هازم نظرائه إنك بالإسلام للشرك هازم

وفى الواقع، لن يبزغ فجر الأمة إلا برجال من نوعية صلاح الدين، يعمدون إلى إنارة الدنيا بأسرها بأفعالهم وأقوالهم.

واضطر صلاح الدين إلى الانسحاب إلى الحصون الساحلية، ولكن تلك الحصون بدأت تتساقط الواحد بعد الآخر حتى سقطت عسقلان التي كان يعتبرها صلاح الدين الباب البحري لبيت المقدس. وبكى صلاح الدين بكاء شديداً وكأنه قد فقد ولداً من أولاده. وليسأل كل منا نفسه إذا كان حزنه بسبب قضية الأمة مثل حزن صلاح الدين أم أنه بسبب مشكلة شخصية؟ وعلى سبيل المثال، لقد تأثرنا جميعا بموت الطفل الفلسطيني محمد الدرّة، ولكن حزننا ما لبث أن تولى وبقى الواقع على ما هو عليه.

الصبر مفتاح الفرج

ولذلك لم يكن غريبا أن تقترب السفن الإنجليزية والفرنسية من بيت المقدس. ومما زاد الأمر سوءا أن الأخبار وصلت بقرب مجيء القوات الألمانية بقيادة فريدريك باربا روسا من شمال الشام.

والله سبحانه وتعالى بالمؤمنين رؤوف رحيم. ورغم أن إجابة الدعاء قد تتأخر بسبب معاصي أو ابتلاءات، ولكن الله لا يتخلى عن عباده المخلصين مثل صلاح الدين. وبالفعل، ظل القائد الورع يدعو ربه بالفرج طوال الليل. وما كانت إلا أيام قليلة حتى حملت الأخبار نبأ غرق القائد الألماني فريدريك باربا روسا في أحد

الأنهار. وقد أعقب ذلك مواجهات عسكرية بين الجيش الألماني والجيش البيزنطي أفضت إلى دحر الألمان حتى إنه لم ينج منهم سوى ألف مقاتل انضموا إلى الأسطول الإنجليزي. وإن دلت تلك الوقائع على أمر فإنما تدل على أن الله العلى القدير لا يخلف وعده بنصرة المؤمنين من أمثال صلاح الدين، إذ يقول في كتابه الكريم:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ [الروم:٦٠].

واضطر صلاح الدين إلى الانسحاب إلى بيت المقدس حيث ينتظر أن تقع المعركة الفاصلة. وكانت أسوار المدينة بحاجة إلى تعلية. ولا تتعجب عند العلم بأن صلاح الدين كان يحمل أقفاص التراب فوق كتفيه والصخر على رأسه مثله مثل العامة، وذلك لأن هدفه من الدنيا أن ينال رضا الله عز وجل، ولم يكن أبدا لعرض زائل. ولما كانت الأمور العسكرية متداخلة، عقد صلاح الدين مجلسا للحرب. ومثلما حدث أيام رسول الله ﷺ أن تواجدت فئة المنتفعين من أمثال عبد الله بن أبى بن سلول الذي ترك النبي الكريم وسط المعركة يوم أحد وانصرف مع ثلاثمائة من الجند، كانت هذه الفئة موجودة أيام صلاح الدين أيضا. وللأسف فإن بعض الأمراء المسلمين تشككوا في إمكانية تحقيق النصر على القوات الإنجليزية بقيادة ريتشارد قلب الأسد والقوات الفرنسية بقيادة فيليب أغسطس، حتى إنهم رأوا وجوب الاستسلام للإرادة الصليبية. وكان موقفهم هذا مثالا تنطبق عليه الآية الكريمة:

﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب:١٢].

وفى المقابل، فقد ثبت الله عز وجل المخلصين من عباده مثل سيف الدين المشطوب وهو المسئول الذي قبع في عكا طوال فترة حصارها. وقد طالب هذا الرجل بشدة من صلاح الدين عدم الاستسلام للصليبيين.وبالفعل، اتخذ صلاح

الدين قراره بالدفاع عن بيت المقدس بكل ما أوتى من قوة. وما أشبه الأمس باليوم عندما صمد أبناء قرية جنين الفلسطينية داخل كيلومتر مربع واحد، ولم يستطع الصهاينة دخول هذه القرية إلا على جثث شهدائها. ولم يكن صمود سيف الدين المشطوب ولا أهل قرية جنين إلا تصديقا للآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ [الأحزاب:٢٢].

ولكن ما هو موقف أمة الإسلام؟ ألم يأن الأوان لأمتنا أن تستيقظ من غفوتها؟ ألم يحن الوقت بعد لتنشئة جيل يستطيع إعادة العزة إلينا؟ هذه الأسئلة موجهة للأب المسئول عن أسرته، وللأم المسئولة عن تربية أبنائها، ولكافة المربين، فإن أمة الإسلام تنادى، فهل من مستجيب؟

وفى ليلة جمعة رأى القاضي الفاضل صلاح الدين مهموما للأمة فنصحه بالتضرع إلى الله تعالى في ليلة اليوم المبارك عند الله جل شأنه فلا يرفع البلاء إلا الذي فرضه. وكعادته في اللجوء إلى بارئه، أمضى صلاح الدين الليلة كلها بين دعاء ورجاء أن يأتي الله عز وجل بالفرج من عنده. وبالفعل، لم يمض أسبوع حتى رحل الأسطول الفرنسي، وفاوض صلاح الدين ريتشارد منفردا على أن تبقى عكا في يد ملك إنجلترا وأن يكون هناك طريقا آمنا للحجيج من النصارى إلى بيت المقدس، وفى المقابل يبقى بيت المقدس تحت سيطرة المسلمين. وانسحب ريتشارد بقواته إلى إنجلترا، وبقى صلاح الدين في الشام.

صلاح الدين ... صلاح البداية ... وصلاح النهاية

وفى ذلك العام أراد صلاح الدين أن يؤدى فريضة الحج، ونصحه المحيطون به إرجاء غيابه عن الشام إلى العام التالي حتى تستتب الأوضاع بعد المعارك الطاحنة

التي خاضتها الأمة عند مقدم الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق. ولم يكن أحد يعلم أن شهر صفر لعام ٥٨٩ هجرية سيشهد رحيل صلاح الدين الأيوبي من الحياة الدنيا، وسيشهد نهاية قصة كفاح طويلة خاضها الشاب البسيط الذي بدأ طريق الالتزام وتعلمه من أبيه، ومن عمّه، ومن معلمه نور الدين محمود، ومن غيرهم. ستنتهي سيرة الورع، والصلاح، والعدل، والجهاد، والتضحية. ستنتهي سيرة المخبت لربه، الساجد، الراكع، الباكي، المتضرع، كثير الصلاة، كثير الصيام. ستنتهي سيرة البطل الذي ظل على ظهر جواده أكثر من سبعة وعشرين عاما كان همه فيها نشر الإسلام. ستنتهي سيرة صلاح الدين الأيوبي ليس ذكرا وإنما أحداثا. ذلك الرجل الذي لم يضحك يوما، وعندما سئل "لم لا تضحك؟"، أجاب قائلا: "كيف أضحك وديار الإسلام في أيدي الصليبيين؟". ستنتهي حياة صلاح الدين الأيوبي صاحب التقوى والخوف من رب العالمين. ستنتهي حياة الرجل المتسامح والمنفق، صلاح الدين الأيوبي. ستنتهي قصة من أعظم القصص التي سطّرها التاريخ.

وفى أوائل شهر صفر سنة ٥٨٩ مرض صلاح الدين مرضا شديدا وبدا للناس قرب أجله حتى إن الرعية من المشرق والمغرب تجمعوا في دمشق. وجاءت امرأة بسيطة من الحجاز عندما علمت بمرض صلاح الدين ووقفت على بابه وهى تقول للقاضي شداد: "والله الذي لا إله إلا هو لأن يختار رب العالمين ولداً من أولادي الساعة أحب إلى من أن يموت صلاح الدين".

فى ذات يوم جلس الأفضل بن صلاح الدين على كرسي أبيه فبكى الجميع وتأثروا لغياب تلك الشخصية، وذلك الحضور، وذلك الجهاد. وأذكر قول الشاعر:

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر

الموت قادم يا عباد الله، الموت أقرب إلى المؤمن من شراك نعله. لا يسلم أحدنا أن يأتيه الموت واقفا أو جالسا، نائما أو مستيقظا، فماذا أعددنا لملاقاة رب العالمين؟ أعد صلاح الدين جهادا وتضحية وفتحا. أعاد المسجد الأقصى من جديد وأعاد الصلاة إليه. فهل هناك منا من يشعر برغبة داخله في أن يكون صلاحا جديدا لأمتنا؟ هذا السؤال إنما أوجهه إلى الآباء والأمهات، الشباب والفتيات، القائمين على التربية في هذه الأمة. نحن في احتياج حقيقي لمثل هذه الشخصية المفعمة بتحري تقوى الله عز وجل.

يقول أبو يوسف: "فكنت أقرأ عليه آيات حتى إذا وصلت إلى قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

[الحشر].

وكان صلاح الدين في سكرات الموت، أفاق من سكرته وهو يقول: "أجل أجل، صحيح صحيح". ولما جاء قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠].

دمعت عيني صلاح الدين ثم ابتسم وابيض وجهه، ونطق الشهادة، وقال: "بسم الله وفى سبيل الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله".

وقبل الختام أقرأ عليكم أبيات من الشعر قيلت في صلاح الدين:

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيه فهذا الفتح برهان

هذه الفتوح فتوح الأنبياء ... وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحى ملوك الفرنج الصيد في يده صيدا ... وما ضعفوا يوما وما هانوا

تسعون عاما بلاد الله تصرخ ... والإسلام أنصاره صم وعميان

فـالآن لبـى صـلاح الـدين دعوتـه بـأمر مـن هـو للمعـوان معـوان
للنـاصر ادخـرت هـذه الفتـوح وما سمت لها همم ملوك قـد كـانوا
إذا طـوي الله ديـوان العبـاد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

انتهت السيرة ولكن الذكرى تبقى. انتهت القصة ولكن الأثر يبقى. وفى ختام هذا الكتاب لا يسعني إلا أن أقول إن الهدف الرئيسي منه هو أن يكون القارئ كصلاح الدين، وأن لا يخذل الإسلام.

أستودع الله دينكم وأماناتكم و خواتيم أعمالكم. وأستودع الله نفوسكم بصلاحها وقلوبكم بخشوعها. وأستودع الله ذاكرة التاريخ التي أسأل الله أن تبقى في عقولكم وقلوبكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تم بحمد الله

***

obeikandl.com